الأمير الشركسي تيمروقه ايدار

Темрюк (Кемиргоко) Идаров

Темырыкъуэ Идар



قد يكون الأمير تيمروقة من أكثر الشخصيات جدلا في التاريخ الشركسي كونه يرتبط اسمه بالتحالف و مصاهرة ايفان الرهيب قيصر الامبرطورية الروسية هذا التحالف الذي أبرمه الأمير تيمروقة يوصف لدى الكثير بانه تصرف اقرب للخيانة و العمالة بحق الشعب الشركسي و أنه فتح الباب أمام اكذوبة الانضمام الطوعي الشركسي للدولة الروسية القيصرية

و لكن في ذات الوقت هناك من يرى أن الأمير تيمروقة لم يشفع له التاريخ الشركسي لتدوين حقيقة أفعاله وفق مقولة ان المنتصر هو من يكتب التاريخ

ولد الأمير تيمروقة(كيميرغوكو)ايدار في العام1502 لعائلة شركسية حاكمة في منطقة القبردي و هو يعتبر من نسل الأمير اينال العظيم قسمت القبردي إلى كبرى و صغرى و لقد لجأت عائلة الأمير تيمروقة من قبردي الكبرى إلى قبردي الصغرى نتيجة الصراع المستمر مع العائلات الأميرية الأخرى على السلطة و بالتحديد عائلة اتاجوق/حتخشوقوة الذين تمكنوا من السيطرة على قبردي الكبرى مما أدى إلى مغادرة عائلة الأمير تيمروقة إلى قبردي الصغرى او ما تعرف باسم الجلاخستانيه

لدى تولي الأمير تيمروقة زمام الأمور عرف عنه شجاعته الفائقة فقد كان معروف عنه تحليه بالأخلاق الفروسية العالية بحيث كان دوما يشعر أعدائه بانه قادم إليهم و لا ياخذهم على حين غرة و كانت صرخته المشهورة يطلقها لدى مهاجمة اعدائه «انا قادم اليكم» و لهذا تمكن من تحييد العديد من الامراء القبردي المنافسين له و إخضاع البعض الآخر و هو الامر الذي سمح له

بالتحرك نحو التصدي إلى الخطر الأكبر الذي كان يهدد البلاد الشركسية إلا و هو التتار و خاصة تتار القرم المدعومين من الدولة العثمانية و الذين كانوا يقوموا بغزو الاراضي الشركسية و يعيثوا فيها قتلا و دمارا و فسادا و لهذا كان ممن شاركوا في احتلال القبردي لمدينة استرخان عام 1532و التي سبقها حصار القبردي لمدينة بخشساري عاصمة تتار القرم عام1523

في عام 1552 تصدى الأمير تيمروقة لجحافل التتار و تمكن من هزيمتهم مما زاد من هجمات التتار خلال الأعوام من 1553-1555 للانتقام من الشراكسة بإحراق قراهم و سرقة قطعانهم من خلال هجمات خاطفة تنطلق من عمق الاراضي التترية هذا الامر دفع الأمير تيمروقة على قيادة حملة عسكرية في العام 1556 تمكن على إثرها من طرد التتار من الاراضي الشركسية و ملاحقة فلولهم إلى شبه جزيرة تامان القريبة من شبه جزيرة القرم و قام بدخولها و احتلال القلعة العثمانية فيها و أصبحت تعرف بعد ذلك بقلعة و مدينة تيمروك و لغاية يومنا هذا لا تزال تعرف بهذا الاسم

و نظرا لما كان يتمتع به الأمير تيمروقة من موهبة في الحكم و إدارة شؤون البلاد و الحرب فقد تنبه الى تحركات الامراء الشراكسة من القبردي المعارضين له داخل بلاده و في ذات الوقت كان يعرف تمام المعرفة بأن الدولة العثمانية تدعم التتار الطورانيين بالسلاح و العتاد المتطور بالإضافة إلى الكتائب المسلحة و بالتالي فإن فرص نجاحه في التصدي الأخطار الداخلية والخارجية مقلقة و غير أكيدة و عليه بحث عن التحالف مع قوى اخرى تستطيع دعمه ووجد ضالته في روسيا القيصرية حيث لم يكن الشراكسة آنذاك في حالة حرب و لا عداء مع روسيا القيصرية بل كانت هذه الدولة الروسية في حالة حرب و عداء شديدين مع التتار و خاصة تتار القرم و الدولة العثمانية أضف إلى ذلك كونها احدى الدول القوية آنذاك في المنطقة و التي من الممكن أن تمد الأمير تيمروقة بالسلاح و العتاد المتطور بالإضافة إلى تدريب قواته على نمط قتال الجيوش النظامية

و عليه قام الأمير تيمروقة عام 1557 بإرسال سفارة /وفد ضم عدد من أبنائه الامراء أبرزهم سلطان قول و بولات جيري و غيرهم إلى موسكو للتحالف مع الروس و فعلا أستقبل القيصر ايفان الرهيب أعضاء الوفد و أعلن قبوله الدخول في تحالف مع إمارة القبردي التي يتزعمها الأمير تيمروقة ضد من يعتدي على الاراضي الشركسية و الروسية

و نتيجة لهذا التحالف تم تنظيم حملة عسكرية مشتركة بين الروس و الشراكسة من القبردي في العام 1559 و تمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالتتار و العثمانيين مما اكد نجاح هذا التحالف و زاد من اهميته

في العام 1561 توفيت الامبراطورة انستازيا زوجة القيصر ايفان الرهيب و كان من المفترض أن يتزوج ابنه ملك بولندا الأميرة كاثرين كما كان سائدا في ذلك الوقت من عادات دبلوماسية لتقوية أواصر التحالف و الحكم إلا أنه فضل الزواج بابنة الأمير الشركسي تيمروقة لاعتقاده بانه التحالف الأقوى و الذي أثبت نجاعته في السنوات الأخيرة و المتمثلة بالانتصار على التتار و العثمانيين و لهذا تم ارسال وفد كبير رفيع المستوى ضم مجموعة من الامراء و المستشارين في البلاط القيصري إلى إمارة القبردي الشركسية ووقع الاختيار على ابنة الأمير تيمروقة الأميرة كواشنيه و تم أصطحابها رفقة شقيقها الأمير سلطان قول إلى موسكو لعقد قرانها على القيصر ايفان الرهيب و أصبحتم بعد ذلك تعرف باسم الامبراطورة ماريا و تم تنصيرها بالمقابل تزوج شقيقها الأمير سلطان قول بابنة الأمير فاسيلي ميخائيلوفتش احد اهم أعمدة البلاط القيصري و الذي كان يتولى إدارة شؤون البلاد المالية و أصبح

اسمه ميخائيل و تم تنصيره ايضا علما بأن زوجته تسارنا كانت تبلغ من العمر 15 سنة فقط عندما تزوجها.
هذه المصاهرة زادت من قوة التحالف و ساهم فرسان القبردي بقيادة ابناء الأمير تيمروقة بمعارك عديدة مع الجيش الروسي في بولندا و شاركوا في قمع العديد من الثورات في بلدان البلطيق و غيرها ضد الحكم القيصري بناءا على شروط التحالف بينهم بينما قام القيصر ايفان الرهيب بدعم الأمير تيمروقة في بسط سيطرته على كامل اراضي القبردي كما حصل في الأعوام 1563و 1566 عندما تمكن الأمير تيمروقة بمساعدة القيصر ايفان الرهيب من هزيمة الامراء القبردي المعارضين له و بالتالي توحيد البلاد كلها تحت حكمه كما سمح الأمير تيمروقة ببناء قلعة في منطقة تيريك الواقعة في إمارة القبردي تابعة للجيش الروسي كان الهدف منها تقديم الحماية و تدريب القوات الشركسية على فنون القتال الحديثة و في العام 1567 شن خان التتار القرم ديفلات جيري حملة عسكرية بهدف تدمير هذه القلعة إلا أنه لم يستطع ذلك رغم ما احدثه من خراب في القرى و البلدات الشركسية التي مر بها إلا أنه تلقى خسائر جسيمة أثناء انسحابه
أصبحت إمارة القبردي الشركسية تحت حكم الأمير تيمروقة القوة المهيمنة و المسيطرة في القفقاس فكانت مناطق غرب القفقاس/شركيسيا تحت حمايته بحكم أنها مناطق شركسية كما ضم مناطق الاوسيت و الانغوش و إخضع جميع الشعوب الطورانية التي ادخلها العثمانيين و التتار إلى القفقاس و بالأخص قبائل النغوي الذين كانوا ذريعة للتدخل العثماني و التتري لغزو الاراضي الشركسية بحجة حمايتهم حتى الممالك الجورجية لم تسلم من الاطماع التوسعية للأمير تيمروقة الذي بسط نفوذه على كافة هذه المناطق و حكمها بقبضة حديدة.
و في العام 1569 شنت القوات التترية مدعومة بقوات عثمانية هجوما على مدينة استرخان في محاولة منها لنصرة التتار فيها و الضغط على القوات الروسية في خانية قازان إلا هذه القوات تعرضت لهجوم شركسي مدمر بقيادة الأمير تيمروقة جعلها تتكبد خسائر فادحة و تابع الأمير تيمروقة تقدمه إلى السهول الشمالية من نهر الدون و احتل تلك المناطق و قام عدد من فرسانه بإنشاء مدينة هناك سميت نوفو تشركيسيك اي شركيسيا الجديدة في مناطق نهر الدون و بالقرب من مدينة روستوف إلا أنهم و بعد فترة عاد الشراكسة منها إلى منطقة بسه خوابه الشركسية مسقط رأسهم و لاتزال هذه المدينة تحمل ذات الاسم نوفو تشركيسيك لغاية يومنا هذا
كره التتار و العثمانيين الأمير تيمروقة كرها شديدا و أصبح العدو الأول لهم و صبوا جام غضبهم على الروس و بالتحديد ايفان الرهيب كونه هو من سمح لطاغية القفقاس حسب قولهم بالتمدد و السيطرة و ترسيخ الحكم الشركسي في القفقاس
و لذلك و في العام 1570 شنت القوات التترية من شبه جزيرة القرم هجوما كاسحا باتجاه موسكو و نجحوا في احراقها و محاصرة قصر الكرملين فيها و اسر الآلاف و أثناء انسحابهم توجه قسم كبير من الجيش التتري إلى المناطق الشمالية لغرب شركيسيا لغزوها و احتلالها فخرج لهم الأمير تيمروقة للتصدي لهم عام 1571 و هناك قام كبار قادته بتقديم النصيحة له بالتراجع و عدم مهاجمة الجيش التتري حيث توفرت معلومات تؤكد أن الجيش التتري كان قوامه أكثر من 130 ألف مقاتل مدعومين بقوات إضافية من تتار قازان و استرخان بالإضافة إلى كتائب من الجيش العثماني تعمل على تأمين مواقعهم و بالتالي فإن التصدي لهذا الجيش مستحيل بالقوات الشركسية المتوفرة ناهيك عن عدم قدرة الجيش الروسي عن تقديم أي مساعدة نظرا للهزيمة التي تعرض لها إلا أن الأمير تيمروقة و الذي كان

من صفاته بالإضافة إلى الشجاعة العناد الشديد قرر مهاجمة الجيش التتري و رفض التراجع و ان يوصف بالجبان و وقعت المعركة على ضفاف نهر بسج/كوبان و سقط في هذه المعركة الأمير تيمروقة قتيلا و اسر اثنين من أبنائه هم مشوقة و بولات جيري على يد القوات التترية
قام أفراد الحرس الشخصي للأمير تيمروقة بسحب جثته من ارض المعركة و أخذها لدفنها في القبردي إلا أنهم وجدوا انتفاضة من قبل الامراء المعارضين كما وصلت لهم معلومات تفيد بأن التتار و بناءا على طلب العثمانيين سيقوموا بشن حملة لنبش قبر الامير تيمروقة و التمثيل بجثته و قطع رأسه و ارساله إلى عاصمتهم بشخساري انتقاما منه كما أن بعض الامراء من القبردي وعدوا بالقيام بذات الامر و هنا تعددت الروايات حول مكان دفن جثمان الامير تيمروقة إلا أن الأقرب للصحة هو قيام أفراد حراسته بدفنه في انغوشيا و هكذا انتهى التواجد الروسي في القبردي و عاد التتار إلى ممارسة أعمالهم الإجرامية في غزو الاراضي الشركسية اما أبناء الأمير تيمروقة فقد كانت مسيرتهم محط تساؤل و تناقض تماما مثل والدهم لقد بذل القيصر ايفان الرهيب جهودا كبيرة من أجل إطلاق سراح الأمير مشوقة و الأمير بولات جيري من قبضة تتار القرم و دفع عشرة آلاف قطعة ذهبية لكل واحد منهم بالإضافة إلى عدد كبير من الأسرى العثمانيين و التتار و لكنه وصلت إليه معلومات تفيد بانه و أثناء هجوم التتار على موسكو لم يقم الأمير سلطان قول/ ميخائيل و الذي كان يقود قوات النخبة من الفرسان بواجبه و ذلك تنفيذا لطلب والد زوجته الأمير فاسيلي ميخائيلوفتش الذي كان على ما يبدو يتآمر مع آخرين على الانقلاب على القيصر ايفان الرهيب فقام بإعدام الأمير ميخائيل/سلطان قول و زوجته و ابنه الصغير عقابا له و لكنه أعاد الاعتماد على الامراء مشوقة و بولات جيري و حاورشاي ميرزا و قانشاو من أبناء الامير تيمروقة من أجل ترسيخ حكمه و كانوا له حراس الدولة الروسية و تزوجوا من اميرات من عائلة رومانوف الحاكمة و أصبحت عائلتهم تعرف باسم شيركاسكي و التي أصبحت لسنوات طويلة جدا من العائلات الارستقراطية في البلاط القيصري و ما زال لها تواجد لغاية يومنا هذا في موسكو و سانت بطرسبيرغ كعائلة مشهورة و لها مكانه سياسية و اجتماعية و اقتصادية مرموقة
علما بأن الأمير مشوقة قد لقى حتفه على يد الامراء القبردي المعارضين لوالده بعد عودته إلى القبردي عام 1601
في النهاية
يمكن القول أن المنتصر هو من كتب تاريخ الأمير تيمروقة فكان في معظم الروايات طاغية و متسلط لم يكن يهمه سوى الحفاظ على حكمه بغض النظر عن الوسيلة تحالف مع الروس و خان شعبه
إلا أنه لا بد من الإشارة أنه و بعد وفاته كانت هناك حزن عام في القبردي على بطلها و كانت هناك عدة مراثي شعبية تنعى الأمير تيمروقة أبرزها ما كان يقول "لم يعد هناك بطل شجاع ، بطلنا الشجاع ، الأمير تيمروقة" و غيرها
الأمير تيمروقة كان قائد و حاكم مارس السياسة فن الحكم كما كان متعارف عليه آنذاك
عندما تحالف مع روسيا القيصرية كان انطلاقا من مبدأ عدو عدوي صديقي لم يكن الشراكسة في حالة حرب او عداء معها بل كان الروس في حالة حرب مستمرة مع التتار و كان يبحث عن حليف قوي يملك السلاح و العتاد المتطور ليؤمن حصوله عليه تماما كما كانت الدولة العثمانية و هي قوة عظمى تدعم تتار القرم بالسلاح و المال

من ناحية أخرى تميز الامير تيمروقة بحنكة سياسية قل نظيرها في ذلك الوقت فهو كان يهدف من اختلاط الدم الشركسي و الروسي /المصاهرة إيجاد تيار او لوبي موالي له داخل البلاط القيصري يضمن له الدعم العسكري و المادي و من جهة اخرى حماية بلاده من اي اطماع توسعية قيصرية بموجب هذا التحالف على ما يبدو كانت تتوفر له قناعة بانه ما ان يتم هزيمة التتار سيتوجه الروس نحوه و لذلك كان يريد من هذا التيار او اللوبي الموالي له داخل البلاط القيصري كبح جماح هذا الامر

إلا أن وفاته و عودة الصراع الداخلي بين الامراء القبردي و عدم براعة أبناءه أدى كل هذا إلى احباط مخططه السياسي المستقبلي و انتهائه.

كثير هي الاسئلة المتعلقة بحقبة حكم الأمير تيمروقة لكنها تشكل حالة فريدة من نوعها فيها توحدت الاراضي الشركسية و امتدت إلى مناطق نهر الدون صحيح كان ذلك بالقوة و القمع إلا أنها أثبتت أن الوحدة الشركسية و لو كان ثمنها الدم هي أفضل الف مرة من الفوضى و التشتت و الضياع.

الدكتور علي محمد كشت

عمان 2019/10/3